التسكع في دروب الهم ....

السيد عباس النحال

السيد النحال سجل فى ذاكرة القرية أنه أطاح بأربعة شبان فاز عليهم فى منازلات منفردة أو مجتمعة حتى أسال الدم من وجوههم فى قلب الملعب وعلى مرأى ممن كان يزفونه ساخرين يوم حادث القماش.. كما أنه سجل فى هذه الواقعة مدى اختلافه عن أخيه الأكبر بدير الذى فرّ هاربًا.

والعجيب أن ذاكرة القرية سوف تحتفظ لهذا الولد العنيف بشيء آخر لا علاقة له بالعنف.. فعندما اندلعت ثورة عبد الكريم قاسم فى العراق، تقدم العمدة فجمع الناس بعد صلاة الجمعة أمام المسجد وخطب فيهم مباركًا الثورة العراقية، وبعد أن أنهى العمدة خطبته قام فأعطى الفرصة لبعض الكبار من أهل البلد لإلقاء خطبهم فى الجمهور السعيد، وقد قام بعضهم بذلك فى أداء عادى لم يدهش الناس. إلى أن تقدم السيد ابن عباس النحال وراح يخطب فى الناس بطلاقة مذهلة وصوت هادئ وكلام موزون فنال تهليلهم العالى وتصفيقهم الحاد حتى أن واحدًا من الكبار الذين خطبوا قبله قال لبعض القريبين منه:

ـ «كل هذا يطلع من ابن النحال؟»

أما العمدة، فقد قال للمحيطين به فى الدوار:

ـ «خطبة الولد ابن عباس النحال هى أفضل خطبة، طبعًا بعد خطبتى»

وبهذا سجل السيد النحال فى ذاكرة قريته شيئين قد لا يشوبهما التناقض: قوة ساعده،

وقوة عقله، وقد أضاف واحد من المعجبين به قوة ثالثة هى قوة عاطفته قائلًا:

ـ «فأنتم لم تسمعوا أغانى الحب التى يكتبها..»

أما ما كان يثير استغرابهم وتعجبهم هو أنه خائب فى مدرسته ودائمًا يأخذ العام الواحد فى عامين.. وأنه كما يبدو يسعى بنفسه إلى مصير شقيقه الأكبر بدير الذى هجر المدرسة منذ عامين وتحول إلى صائع كبير كما يشاهدونه فى طرقات المدينة.

فلم يكن طالب الصنايع ـ المهموم بفقره ـ بحاجة إلى معرفة أين ستذهب به الدنيا، أو إلى أين سيذهب مع الدنيا وهو يهرب من مدرسته ثم وهو يهيم على وجهه لا يلوى على شىء..

قيل إنه عشق الهروب لأنه يحب الحرية، وقد قال عن نفسه إنه يشعر بالاختناق كلما أغلقوا عليه باب الفصل.. ولاحظوا أنه لو مرت حصة واحدة على خير فى وجوده، فأغلب الظن أن الحصة التالية لن تكون كذلك. فهو يملك كل دواعى إفساد الحصص أو تحويلها فى أفضل الأحوال إلى ملهاة..

أما أساتذته، فهم يعلمون السرّ فى شططه، فها هو الأستاذ محمد فودة يضع أمام زميله الأستاذ عبد الكريم شعبان تحليلًا لحالة تلميذهما الشارد، فيقول له:

ـ «ولد: إخوته عشرة أولاد يعيشون تحت سقف واحد فى منزل حقير مظلم وضيق.. أبوه كلاف بهائم يكمل عشاءه نومًا ـ هذا إذا نال بعض العشاء ـ ماذا تريد منه؟ هل يستجير من جحيم البيت بقيود المدرسة؟»

ويؤيده الأستاذ عبد الكريم بتحليل موازٍ:

ـ «هذا الولد يعانى من تمزق، فهو يحب القراءة ويكتسب الشعر والأغانى ولا يملك ثمن كتاب أو رواية أو ديوان من الشعر، ثم إنه يرى نفسه زعيمًا وسط الأولاد ولا يملك إلا بنطلونًا واحدًا وقميصًا يتيمًا.. فهل يمكنه أن يحب المدرسة ويفرح بالفصل ويشتاق للحضور؟ أشك فى ذلك..؟»

وما اتفق عليه الأستاذان هو أن انضمام بدير النحال إلى غوغاء المدينة وتحوله إلى صائع كبير برغبته قد يكون ساهم فى تردى أحوال السيد أكثر مما هى مترديـة، ولما تعلم الأخ الأكبر بدير ممارسة الأعمال الأكثر دناءة لتدبير نفقاته، فإن السيد أمسك بالأعمال الأقل

دناءة. مثل مهنة الدلّال الذى يساعد تاجر البهائم على بيع بهائمه فى سوق المواشى.

اقترب منه أستاذه عندما شاهده فى السوق، وهمس له:

ـ «أتعمل دلالًا يا سيد..؟»

ـ «موسم يا أستاذ.. موسم»

ـ «والدراسة يا ولد؟»

ـ «لكم عندى شهادة مرضية سأقدمها للمدرسة آخر العام ..»

ـ «خذ دبلومك يا ولد، هذا ثالث عام لك فيه.. أنت أخذت سنة أولى فى عامين وسنة ثانية فى عامين.. أخوك الأصغر أمير حصّلك وكنت تسبقه بأربعة أعوام»

ـ «أخى أمير راسم أن يكون دكتورًا.. أنا لست متعجلًا مثله..»

وينصرف الأستاذ فودة وهو يضرب كفًا بكفّ.. وقد عقد العزم ألا يفشى بهذا السرّ لأحد من زملاء فصل السيد النحال اتقاء لشره..»

* * *

السيد النحال انتبه إلى حد الاعتدال وهو يتأمل قرار الهجرة الجسور الذى قرره ثم نفذه أخوه بدير وغادر به البيت والمدرسة دفعة واحدة. ثم وهو يتأمل الأثر الوحيد الباقى منه فى المنزل.. مكان نومته فى غرفة الأولاد.. ولم يراوده الإحساس بالفقد قدر ما سعد أن الغرفة قد رحبت واتسعت بعد أن قل عدد قاطنيها من ستة ذكور إلى خمسة، وقد سعد أمير بهذا المكسب الطارئ فابتعد بنومته عن رأس عرفه الملىء بالقراع والدمامل التى لا تكف عن نزف الدماء..

أما الاعتدال الذى خامره وهو يتأمل قفزة بدير الجريئة، فهو ما ارتاح إليه من أن بدير قد تمكن من الاستغناء عنهم تمامًا، وأنه فى غيابه الطويل قد دبر نفسه فى مأكله ومشربه وملبسه ومأواه.. وصار المهم فى نظر السيد هو أن فكرة تحقيق الاستقلالية هى فكرة ليست بعيدة المنال. واكتشف أن «أمير» يمارس هذه الفكرة بهدوء؛ إذ بدا له أن أخاه الأصغر سقط من حالق كالطير الجائع على جرن ملىء بالقمح، فهو يصادق أولاد أثرياء المدينة، فصار يأكل على

موائدهم، ويتأخر طويلًا عندهم مستغلًا فى ذلك كونه الأول على فصله.. ثم وسامته البادية رغم ملابسه المتواضعة التى يهتم بنظافتها اهتمامه بتسريحة شعره الناعم الكثيف، كما بدا له أن «أمير» توغل فى هذه الصداقة حتى أنه صار يرتدى ملابسًا جديدة لا يمكن أن يعرف عباس النحال الطريق إلى شرائها ـ هذا إن كان يملك أصلًا ثمن شرائها.

وقد جاءته فرصة العمل كدلّال وهو يتسكع فى طرقات المدينة بعيدًا عن مدرسته وشاهد فتيانًا ومعه رجل طاعن فى السن يسوقان بقرة أمامهما، وعرف أنهما يتجهان إلى سوق المواشى لبيعها فناداه ساخرًا: «**إيه يا فتيان؟.. طالب ثانوى فاشل وتاجر بهائم فاشل أيضًا؟**»

رد عليه فتيان بعصبية وهو يلهب البقرة بعصًا فى يده: «**كن فى حالك يا ابن النحال**»

وأكمل السيد:

«**أتذهب إلى السوق قرب الضحى أيها الخائب.. ستذهب إلى سوق انفض سامره، من باع قد باع، ومن اشترى قد اشترى**»

فهتف فتيان وهو ممعن فى إلهاب البقرة بعصاه:

«**ربنا يوعدنا بدلال شاطر**»

ودون تفكير لاحقة السيد قائلًا وهو يقفز ناحيته ضامًّا نفسه إلى ركبه:

ـ «**وأنا هذا الدلال.. دع هذا الأمر لى.. سأبيعها لك..**»

وبدا أن فتيانًا راق له أن يرد له لكزته الأولى:

«**ومدرستك أيها الطالب الفاشل؟**»

فقال له السيد وقد فهم مغزى لكزته: «**سوق البهائم أفضل من مدرستى ومدرستك.. ارتحت**»

وكان النصف جنيه الذى كسبه السيد من فتيان فى هذا الضحى هو بدايته فى سوق الدلالة، وبداية تعلقه بالطرق المؤدية إلى أسواق البهائم، إلى أن عرف التجار أن هذا الولد الطويل النحيل ليس دلالًا محترفًا بل دلالًا هاويًا يلتقط رزقة يومًا بيوم وينفقه على نفسه، فطمع منهم من طمع فى عرقه، وبخس من بخس منهم مجهوده، وصار الشجار بينه

وبينهم يأخذ من أعصابه أكثر مما يأخذه صياح التسويق، فقرر العدول عن هذه المهنة.

وفى المقاهى التى كان ينفق بها دخله من الدلالة يومًا بيوم تعرف على عمال المعمار من مختلف الصنايعية: نجارين.. حدادين.. معلمين تركيب البلاط، والبناء بالطوب، وسباكين وكهربائية.. ورآهم يتحاسبون.. يتصايحون.. يمرحون.. يأكلون ويشربون.. فأعجبه أن عالمهم به سخونة وروعة أكثر من عالم تجارة المواشى.

ولما طلب من الجرسون أن يرسل كوبًا من الشاى لهذا الشاب «الذى هناك» على حسابه.. كان يقصد التعرف عليه ليساعده فى أن يعمل معهم، وما إن وصلت التحية إلى صاحبها وتعرف على من جاد عليه بهذا الكرم سارع فقدم له نفسه من بعيد:

«محسوبك السيد النحال.. دبلوم صنايع»

ـ «محسوبك الأسطى زكريا.. حداد مسلح..»

* * *

وفرك الأستاذ محمد فودة عينيه وهو يتأمل تلميذه الشارد:

ـ «من؟.. السيد النحال.. أتعمل حدادًا يا ولد؟»

فاتجه إليه السيد وهو «يزك» على قدمه اليمنى وصافحه مبتسمًا:

ـ «وقد ترانى أقود طائرة فى المرة القادمة يا أستاذ فودة»

غسله الأستاذ فودة بنظراته من أعلى إلى أسفل: **«ما شاء الله، تفهم فى كل شىء ما عدا مواد دراستك ..»**

ـ «لأنها أتفه من أن أهتم بها»

ـ «ولماذا تربط قدمك هكذا بهذا الشاش الثقيل»

ـ «عملية..»

ـ «جراحية..؟»

ـ «المقص الملعون.. مقص الحديد»

ـ «لأنك غشيم.. تدخل فيما ليس لك فيه.. يا ولد اخلص من شهادتك يا مغفل..»

نظر النحال حواليه، وهمس لأستاذه:

ـ «لا أحد يعرف أننى فى الصنايع.. ولكن أطمئنك، فأنا سوف أصفى حسابى عند مقاول هذه العملية.. اسمه هريدى.. صعيدى جاء يلعب على أولاد بحرى.. يحاسبنى على يومية مساعد وأنا أفضل من أىّ صنايعى عنده.. اسمع يا أستاذ هذه الأغنية.. كتبتها عنه..»

وأخرج السيد النحال من جيب بنطاله ورقة معروقة متآكلة الأطراف وقرأ منها:

«حرام عليك يا زمن يبهدلنى خسيس وجبان

يلين معانا الحديد.. وقلب العويل لم لان

بكره الزمن يا هريدى.. يعز أصحابه

وبكره فعل الخسيس يلزق على بابه

وقلة الأصل، دايمًا ع اللئيم بتبان»

ضحك الأستاذ مليًّا، ثم سأله:

ـ «هل ستعود إلى دراستك بعد أن تصفىّ حسابك؟»

ـ «الذهاب إلى النار ـ وليس المدرسة ـ أفضل من البقاء مع هذا الخسيس»

ويقول الأستاذ محمد فودة إن هريدى الذى سمع الأشعار من فوق سطح العمارة هب من مكمنه صائحًا: «من منا الخسيس يا ابن كلاف البهائم؟.. ألا تخجل من أصلك يا..»

لم يكمل هريدى سبابه وتراجع للخلف مسرعًا ليتفادى «زلطة» أرسلها إليه السيد، وراح يبحث عن شىء ما إلى أن أمسك بقطعة حديد فاتجه بها إلى مكان السلم وهو يتقافز بقدمه المصاب، فاجتمع عليه العمال ليمنعوه من الصعود وهو يهتف بهم:

ـ «دعونى أصعد لهذا الكلب حتى أضع هذا السيخ فى مؤخرته»

وما رآه الأستاذ فودة بعد ذلك هو أن هريدى اختفى فى مكان بعيد عن متناول السيد، وأن العمال سحبوا زميلهم الثائر المجروح إلى مكان ظليل وتمكنوا من تهدئته، فقال لواحد منهم وهو يشير إلى هريدى وأنفاسه تلهث:

ـ «اذهب إليه.. لى عنده خمس يوميات واليوم نصف يومية.. اقطع معه حسابى على

أجر صنايعى.. ويخصم جنيهًا أخذته تحت الحساب.. إن لم يستجب لذلك، فلن يظهر ليومه هذا شمس ولن يسافر إلى الصعيد إلا وهو معبأ فى صندوق..»

ولما استجاب هريدى لمطالب عامله العنيف، برر سرعته فى ذلك بقوله:

ـ «فعلت ذلك حتى أخلص منه ومن سفالته..»

* * *

أزاح عباس النحال باب بيته المطل على الشارع ودخل دون جلبة فأومأت له زوجته أم الخير أن ولديها بدير والسيد يجلسان فى غرفة الأولاد، أشرقت نفسه بمجرد أن علم أن «بدير» هنا، وتأكد أنه ولا شك يحمل معه فى هذه الزيارة بعض خيراته التى صار لا يأتى فى الشهور الأخيرة إلا محملًا بها.. وأصبحت زياراته الليلية المتقاربة ـ بما فيها من لحم مشوى وخبز طرى وهذا الشىء الذى اسمه طحينة، تثير شهية الأولاد عند سماعهم طرقاته على الباب فيقذفون بأغطيتهم ويتقاذفون إلى الصالة وهم يفركون عيونهم.

حاول أن يعرف من أين لبدير بكل هذه الأموال التى تنطق بها هيئته الجديدة، وطعامه الفاخر، حتى إنه عندما تقدم برجاء إلى بدير أن يعرض عرفه على أحد الأطباء لعلاج القراع الذى برأسه كان يأمل أن يأتى له عرفه بخيط ما يعرف عباس منه كيف يكسب بدير رزقه وفى أىّ شىء يعمل؟.. ولما ذهب عرفه إلى مشوار العلاج وعاد ببعض علب الدواء والمراهم وربطة لا بأس بها من الحلوى والهريسة راح والده يحاصره بأسئلة متناثرة لم يفهم الصغير مغزاها، إنما فهمتها أمه وهزت رأسها فى استسلام ثم لاذت بالصمت، وطاشت المحاولة الوحيدة التى حاولها عباس النحال ليفك بها لغز ثراء بدير رغم ما كان يأمله فى قدرة عرفة ذلك الصغير الحاذق الذى لم يتورع عن قلع شبكة صياد من مشبكها بالترعة وأتى بكل ما بها من سمك فى مهمة سطو يعجز عنها رجل كبير..

اقترب عباس النحال من باب غرفة الأولاد المغلق على بدير والسيد فهاجمته رائحة خيل إليه أنه يعرفها، وما إن تعمد فتح الباب بغتة حتى أسرع بدير بسحق سيجارته المشتعلة فى الأرض.. أما السيد، فقد صنع من راحته غطاء على سيجارته، وبدا مما يفعله أنه يوارى سوءة بيديه..

عاد عباس إلى غرفته، وتمدد على سريره وهو يفكر..

«إنه الحشيش.. الحشيش هو السرّ فى الغرفة المغلقة. وهو السرّ فى الحياة المفتوحة.. بدير يدخنه فى الغرفة، ويتاجر به عند الناس.. بدير الآن هو الطباخ الذى يتذوق سمه المطبوخ..»

خرج عباس إلى الصالة وارتقى السلم النقالى فصعد إلى السطح عبر فتحة فى السقف، ومن جلسته فوق كومة من القش نادى على بدير فصعد إليه.. وما إن برز فى مواجهته حتى سأله وهو متكئ:

ـ «قل لى يا بدير.. منذ متى وأنت تتاجر فى الحشيش؟»

تلعثم بدير لحظيًّا، ومع ذلك فقد أجاب بسؤال:

«وكيف عرفت ذلك؟»

حمل سؤاله شكل الإجابة بالموافقة على أنه فعلًا يتاجر بالحشيش، فقال له والده:

ـ «طباخ السم يتذوقه.. وأنت الآن تتذوق بضاعتك»

ابتسم بدير، وتذكر ما يقوله بعض الناس عن والده من أنه يمتلك عقلًا يزن بلدًا بأكمله .. ثم قال:

ـ «أتاجر به منذ ما يقرب من ستة شهور»

ـ «ومع من من التجار؟»

ـ «مع أكثر من تاجر»

ـ «إذن، فهناك قضية إتجار بالمخدرات تنتظرك فى القريب العاجل»

ـ «لماذا؟»

ـ «لأن تاجرًا من هؤلاء سيضحى بك ويقدمك سد خانة عند رجال المكافحة.. ولن تعرفه منهم ما داموا كثرة..»

لاذ بدير بصمت طويل، وهو يتأمل كلام والده، مما أشار إلى أنه يقلّب هذا الأمر منذ زمن فى عقله، وهنا اعتدل عباس النحال فى مواجهة ولده الذى جلس بجواره وهو آمن،

وقال له:

ـ «يا حمار.. إن لم تكن داهية مليئًا بـاللؤم فـلا تتـاجر فى الحشـيش.. اعمـل مـع تـاجر واحد.. ولا تكشف عن نفسك بكل هذه الملابس الجديـدة. فالنـاس تعلـم أنـك لا تملـك وظيفة بعينها حتى تكون هى سرّ نعمتك.. صحيح أن تجارتك لن تظـل سرًّا مغلقًـا مـدى الحياة، ولكن يجب أن تجعل عملك بهذا الصنف مشكوكًا فى صحته، حتـى لـو كـان يقينًـا عند بعض الناس..»

راح بدير يتأمل والده بذهول، ففى دقـائق معـدودة وقـف منـه موقـف المحقـق، ثـم اللائم، ثم الناصح، ثم الموجه، وزاد ذهوله وهو يتلقى هذا التوجيه الجديد:

ـ «خذ السيد معك.. اليد البطالة نجسة.. هل هو يعرف أنك تتاجر فى الحشيش؟»

ـ «لم أبلغه؛ لأنى لم أجد داعيًا لذلك..»

ـ «مخطئ.. خذه فى صفك، وضع سرك على سرّه.. لا تخشَ جانبه، هو مصـيبة وسـوف يفيدك»

ولأن فكرة توظيف السيد معه فى ترويج الحشيش كانت تـراوده، ولأنـه كـان يبحـث لذلك عن مدخل مناسب، فقد سارع بتقديم إجاباته الجاهزة أمام السيد الذى سـأله فـور نزوله إليه:

ـ «فى أى شىء كان يريدك هذا الرجل؟»

ـ «سألنى عن الحشيش الذى ضبطنا ندخنه معًا»

ـ «وماذا قلت له؟»

ـ «قلت له إننى أتاجر فيه»

ـ «ولماذا تسخر منه هكذا؟»

ـ «لم أكن أسخر منه.. لقد قلت له على الحقيقة»

اعتدل السيد فى مواجهته، وراح يتفحصه بدهشة.. ثم هزّ رأسه عدة مرات علامة مـن فهم شيئًا كان غائبًا عنه:

ـ «أهكذا الأمر.؟ وأنا الذى كنت أتعجب من هذا الخير الذى هبط عليك مرة واحدة.. كباب وكفتة.. ملابسك الجديدة.. وملابس عرفة والبنات وأمك.. ولما رأيتك تدخن الحشيش جاء فى مخى أن فلوسك زادت إلى حدّ عجيب، ولا أدرى لماذا راودنى إحساس أنك تعمل قوادًا؟»

فظهر الغضب على وجه بدير وهو يقول:

ـ «كيف تتهمنى بالقوادة.. وأنا الذى اهتاجت كرامته وقلبت حياتى رأسًا على عقب منذ أن شاهدت والدك متخفيًا أمام مسجد ويتسول فى المدينة؟..»

بحلق السيد فى وجهه وهو يهتف: «الكلب.. أكان يتسول؟»

ـ «ولم يُصلح حالى بعد أن ضبطته.. هجرت المدرسة والمنزل..»

ـ «ويبدو أننى سأفعل مثلك.. سأهجرهما أنا أيضًا»

ـ «ظننتك ستنتهى من شهادتك هذا العام»

ـ «وهل هذه شهادة؟»

ـ «اسمع.. فى وضعك الجديد سنكون بحاجة إلى أن تظل طالبًا كما أنت..»

ـ «وضعى الجديد؟.. أىّ وضع؟»

ـ «ستعمل معى فى تجارة الحشيش، لن تلفت الأنظار إليك وأنت طالب.. ولعلمك: والدك شجعنى على ذلك»

لم يهتم السيد بهذه الملاحظة، و قال وهو يلوح بيده فى قرف:

ـ «لست بحاجة إلى تشجيعه من عدمه.. ليظل فى حاله ويتركنا فى حالنا.. المهم.. قل لى: ما هو المطلوب منى بالضبط»

ومنذ اللحظة التى اعتدل فيها بدير فى مواجهته قائلًا له:

ـ «اسمع يا سيدى..»

بدأت رحلة من نوع جديد فى حياة السيد عباس النحال .